هل ورث الرب يسوع الخطيةَ أو الموت؟

دكتور
جورج حبيب بباوي
٢٠١١

www.coptology.org

لم تعرف الكنائس الأرثوذكسية قاطبةً موضوع وراثة الخطية، بل منذ بداية العصر المسيحي حتى القرن الثامن عشر كان السائد في الشرق الأرثوذكسي هو: وراثة الموت.

وقد كان أول من استخدم تعبير "الخطية الأصلية" هو القديس أغسطينوس، وهو أول من قرأ النص اللاتيني لرومية ٥: ١٢ حيث أضاف إلى نهاية النص عبارة: "إذ أخطأ الجميع فيه"، أي في آدم. وهكذا علَّم أغسطينوس بوراثة ذنب Guilt آدم وليس خطية آدم وحدها (مقالة حرية الإرادة ٣: ١٢١).

وقد قبلت كنيسة روما هذا التعليم في عدة مجامع مكانية.

تعد مقالة الخطية الأصلية في الموسوعة الإنجليزية الخاصة بالقديس أغسطينوس هي أكمل وأشمل ما صدر في العصر الحديث:

Augustine Through The Ages; An Encyclopedia, General editor Allan D. Fitzgerald,1999

راجع ابتداءً من ص ٦٠٧ وما بعدها.

وقد وضعت المقالة كل المراجع والشواهد الخاصة بهذا الموضوع في كل كتابات القديس أغسطينوس.

التجسد الإلهي ووراثة الموت ووراثة الخطية

السؤال عن وراثة الرب يسوع للموت أو الخطية يؤكد عدم تأصُّل واستيعاب التسليم الأرثوذكسي الخاص بالتجسد، وإن كان يؤكد في نفس الوقت تأصُّل التعليم القبطي المعاصر عند شريحة كبيرة من ضحايا الفولكلور، أو التراث الشعبي السائد في هذا التعليم.

وإذا عدنا إلى التسليم الأرثوذكسي الخاص بالتجسد، نجد أن تجسد ربنا يسوع المسيح هو تجسد طوعي حر، جاء بالإرادة الإلهية الواحدة للثالوث القدوس (يو ٣: ١٦ – غلا ٤: ٤)، فهو مجيءٌ حر غير مقيد بالتسلسل الجسداني من آدم، أي أن الرب يسوع ليس ثمرة الولادات المتعاقبة مثل البطاركة وملوك بني إسرائيل. لذلك يجب وضع كلمات القديس كيرلس السكندري موضع الاهتمام. فقد ذكر القديس كيرلس في الفصل الخامس من كتاب المسيح واحد، وتحت عنوان: لماذا وُلِدَ من عذراء؟ سبب الحبل البتولي بالرب، وهذا هو شرح ق كيرلس[1]:

(أ) قال المسيح في موضع معين "ألم تقرأوا أنه في البدء خلقهما ذكراً وأنثى" (متى ١٩: ٤) والرسول بولس الإلهي يكتب "ليكن الزواج مكرماً عند الكل، الفراش نقي" (عبرانيين ١٣: ٤). **فكيف استطاع الكلمة الابن الوحيد أن يدخل عالمنا متجسداً؟ وكيف أخذ شكلنا بدون السماح للقوانين الخاصة بالطبيعة الإنسانية أن تظل سارية المفعول في ميلاده وتجسده؟ لماذا لم يأخذ جسده من زواج، فهو ليس ثمرة عرس، بل هو من العذراء الفائقة تجسد بالروح القدس،** حسب ما هو مكتوب "قوة العلي تظللك" (لوقا ١: ٣٥). فالله لم يحتقر الزواج، بل حفظ له بركةً خاصةً، لكن لماذا عندما تجسد الكلمة الله من عذراء، تجسد بالروح القدس وليس من الزيجة؟

(ب) لا أعرف.

(أ) غريب ألا يبدو هذا واضحاً لكل من يدرس الإيمان؟ **لقد جاء الابن وصار إنساناً لكي يحول طبيعتنا فيه هو، وابتدأ أولاً بالميلاد الذي جعله مقدساً وعجيباً**، إذ جعله ميلاداً للحياة، فوُلِدَ

---

(1) القديس كيرلس السكندري: المسيح واحد – ترجمة د. جورج حبيب بباوي – مركز دراسات الآباء بالقاهرة، يناير ١٩٨٧، ص ٢٩ – ٣٠. ويلاحظ أن هذا النص صاغه القديس كيرلس في صورة حوار بينه وقد رمز لنفسه فيه بحرف (أ)، وبين شخصٌ آخر رمز له القديس كيرلس بحرف (ب).

هو أولاً من الروح القدس، وأنا أعني طبعاً جسده، لكي ننال نحن هذه النعمة، وتصل إلينا منه لكي نولد ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله" (يوحنا ١: ١٣). **وبالروح القدس تولد نفوسنا ميلاداً جديداً روحياً**، مشابهاً لميلاد ذاك الذي هو بالطبيعة وبالحق الابن، وبذلك ندعو الله أباً. ويؤهلنا هذا الميلاد الجديد أن نبقى في عدم انحلال لأننا امتلكنا ليس طبيعة آدم الأول الذي فيه انحللنا، بل طبيعة آدم الثاني. وحقاً قال المسيح مرةً: "لا تدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد وهو الذي في السموات" (متى ٢٣: ٩). ففيه هو قد ولدنا ميلاداً جديداً عندما نزل إلى حالتنا لكي يرفعنا إلى كرامته الإلهية، ولذلك قال: "أنا صاعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم" (يوحنا ٢٠: ١٧). والآب الذي في السماء هو أبوه بالطبيعة، ولكنه هو إلهنا نحن، والابن يدعوه كذلك لأن الابن بالطبيعة وبالحق صار إنساناً مثلنا. ويقول عن الآب إنه إلهه حسب إخلائه لنفسه، ولكنه أعطانا أيضاً أباه السماوي كآب لنا كما هو مكتوب: "وأما كل الذين قبلوه أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أبناء الله أي الذين يؤمنون باسمه" (يوحنا ١: ١٢). أما إذا أنكرنا – بسبب جهلنا – ميلاد كلمة الله الآب بالجسد مثلنا، والذي صار "متقدماً في كل شيء" (كولوسي ١: ١٨). فعلى شبه مَن سوف نتجدد وسوف نولد من الله بالروح؟ ومن سيصبح الباكورة بالنسبة لنا؟ ومن يستطيع أن يمنحنا كرامة البنوة؟

(ب) أعتقد أنهم سيقولون الكلمة المتجسد.

ما هو تجسد الكلمة:

(أ) كيف تحقق التجسد، إلاَّ إذا صار الكلمة جسداً أي إنساناً، جاعلاً الجسد جسده باتحاد بلا افتراق لكي يكون فعلاً جسده وليس جسد آخر سواه؟ هكذا أعطانا نعمة البنوة وأصبحنا نحن

بذلك مولودين من الروح لأن فيه هو أولاً حصلت الطبيعة الإنسانية على هذا الميلاد الروحي، وبولس الإلهي كان يفكر في نفس الموضوع فقال بكل صواب "وكما لبسنا صورة الترابي، سوف نلبس صورة السماوي" وقال أيضاً "الإنسان الأول من التراب ترابي، والإنسان الثاني من السماء. ولكن كما الترابيون مثل الترابي، كذلك سيكون السمائيون مثل السمائي" (١كورنثوس ١٥: ٤٩ و٤٧ و٤٨). ونحن ترابيون، فينا التراب من آدم الأول الترابي، أي اللعنة والانحلال اللذين بهما أيضاً دخل ناموس الخطية في أعضاء جسدنا. ولكن نحن صرنا سمائيين، وأخذنا هذا في المسيح، لأنه بالطبيعة الله وهو الكلمة من فوق، أي من الله، ونزل إلينا متجسداً بطريقة فائقة. فوُلِدَ بالجسد من الروح، لكي يجعلنا مثله ونصبح قديسين وبلا فساد، وتنزل إلينا النعمة من فوق، ويصبح لنا بداية ثانية وأصلٌ جديدٌ فيه".

من هذا النص يتضح لنا الآتي:

١- كان التجسد حسب كلمات القديس كيرلس هو "تحول في الطبيعة الإنسانية"، وهو تحول حدث في الطبيعة الإنسانية التي ولدت من القديسة مريم.

٢- كان ميلاده هو "ميلاداً للحياة ... لكي ننال نحن هذه النعمة وتصل إلينا"، وبقية الفقرة ذات دلالة هامة "وتصل إلينا منه لكي نولد ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله (يو ١: ١٣)".

٣- "وبالروح القدس تولد نفوسنا ميلاداً جديداً".

إذن ماذا حدث للطبيعة القابلة للموت التي ماتت على الصليب؟ بالعودة إلى محاضرات شرح تجسد الكلمة، يجد القارئ ما يأتي:

أولاً: القبول الإرادي لابن الله الكلمة لأن يتجسد، يجعل تجسده خاضعاً لقوة وإرادة اللاهوت. فالمسيح ليس محصلة أو ثمرة اتحاد طبائع يتم حسب قوانين الطبائع، بل هو أقنوم الكلمة الذي بإرادته الحرة قَبِلَ الطبيعة المائتة واتحد بها بقوة ومحبة إلوهيته للآب وللبشر، وهي أيضاً محبة واحدة لا تقبل الانقسام أو الفصل.

ثانياً: كان للرب إرادة حرة إنسانية، ولكنها لم تكن إرادة الطبيعة الإنسانية التي تحيا بدون اللاهوت مثل إرادتنا نحن قبل المعمودية، بل الإرادة الحرة الإنسانية لأقنوم الكلمة المتجسد التي تأخذ حريتها من الطاعة للآب ومن محبة الآب، المحبة الكاملة، إنسانياً وإلهياً أيضاً. هذه المحبة لا تسمح بالابتعاد عن الله.

ثالثاً: في نص جميل شعري – حسب الإيقاع اليوناني – يقول الرسول بولس في فيليبي ٢: ٦ – ٨:

الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ،

لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً للهِ.

لكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ،

آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِراً فِي شِبْهِ النَّاسِ.

وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ،

وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ، مَوْتَ الصَّلِيبِ".

هذه حركة ديناميكية للمحبة الإلهية التي لا تجعل للذات مكان المركز، بل إخلاء الذات، واتخاذ صورة العبد، والحياة كإنسان، والطاعة حتى الموت.

كل هذه معاً تجعل المسيح بلا خطية لأننا نحن العبيد لدينا العكس: مركزية الذات، رفض صورة العبد، الحياة تحت عبودية الأهواء، واختيار الذات وسيلة وغاية، العصيان حتى الموت، موت العصاة، ولذلك يقول الرسول:

"لِذلِكَ رَفَّعَهُ اللهُ أَيْضاً،

وَأَعْطَاهُ اسْماً فَوْقَ كُلِّ اسْمٍ (يهوة)؛

لِكَيْ تَجْثُوَ بِاسْمِ يَسُوعَ كُلُّ رُكْبَةٍ مِمَّنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ عَلَى الأَرْضِ وَمَنْ تَحْتَ الأَرْضِ،

وَيَعْتَرِفَ كُلُّ لِسَانٍ أَنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ هُوَ رَبٌّ لِمَجْدِ اللهِ الآبِ".

لأن المجد الذي أخذه من الآب هو ذات مجد الآب.

رابعاً: كلمات فيلبي ٢: ٦ – ٧ هي عكس ما حدث في تك ٣: ١ – ١٩)[1]؛ لأن الذي خُلِقَ حسب صورة الله، أي آدم، رفض الصورة والمثال، بينما الذي هو صورة الله الحقيقية (عب ١: ٣)، لم يجعل هذه الصورة عائقاً أمام الخلاص وطاعة الآب كعبد.

طلب آدم الحياة حسب صورته الذاتية التي اختارها، فسقط في فراغ الأنا، أي جحيم النفس والذات التي تحيا حسب مركز الوعي والحياة بدون الله.

طلب المسيح الحياة حسب محبته ومحبة الآب، لذلك نال المجد وبذلك غلب الخطية والموت.

أخيراً: تؤكد تجارب الرب في البرية أثناء صومه الأربعيني أن ما حدث في تك ٣: ١ – ١٩ قد انقضى، فقد رفض الرب الحياة الآتية من الخبز وحده. وكلمة "وحده" هامة، فهي مصدر الحياة الذي جعله آدم فوق مصدر الحياة الأبدي، أي الله نفسه.

ورفض المسيح السيادة على العالم بالسجود لمن يملك العالم، وبذلك كسر شوكة الكبرياء.

---

(١) "وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الإِلهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: «أَحَقًّا قَالَ اللهُ لاَ تَأْكُلاَ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: "مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ، وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَمَسَّاهُ لِئَلاَّ تَمُوتَا». فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا! بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ». فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهِجَةٌ لِلْعُيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ. فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. فَخَاطَا أَوْرَاقَ تِينٍ وَصَنَعَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ. وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الإِلهِ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الإِلهِ فِي وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. فَنَادَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَقَالَ لَهُ: «أَيْنَ أَنْتَ؟». فَقَالَ: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ، لأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ». فَقَالَ: «مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لاَ تَأْكُلَ مِنْهَا؟» فَقَالَ آدَمُ: «الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ». فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْمَرْأَةِ: «مَا هذَا الَّذِي فَعَلْتِ؟» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: «الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ». فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْحَيَّةِ: «لأَنَّكِ فَعَلْتِ هذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ. عَلَى بَطْنِكِ تَسْعَيْنَ وَتُرَابًا تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكِ. وَأَضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ نَسْلِكِ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ». وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: «تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاَدًا. وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ». وَقَالَ لآدَمَ: «لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلاً: لاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. وَشَوْكًا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ".

رفض أن يجرِّب أمانة الله، وعاش في طاعة كاملة؛ لأن الطاعة الكاملة هي طاعة المحبة[1].

وبسبب طاعة ومحبة الرب: قَبِلَ الرب الموت طوعاً (يو ١٠: ١٨)، ومات وهو في سرور المحبة (عب ١٢: ٢)، فلا مكان للخطية بسبب المحبة والطاعة. وقبول الموت الاختياري بالإرادة الحرة، هو ما يجعل كل الكنائس الأرثوذكسية تنشد:

"بالموت داس الموت".

لأن الإرادة الحرة لأقنوم الله الكلمة قَبِلت الموت لكي تثمر الحياة. خضعت للموت بحرية وليس بسبب قوانين الطبيعة؛ لكي تقوم الحياة ظافرة بالخلود.

لعل كلمات الرب يسوع: "لَيْسَ أَحَدٌ يَأْخُذُهَا مِنِّي، بَلْ أَضَعُهَا أَنَا مِنْ ذَاتِي. لِي سُلْطَانٌ أَنْ أَضَعَهَا وَلِي سُلْطَانٌ أَنْ آخُذَهَا أَيْضاً" (يو ١٠: ١٨)، هي التي تجعل هذا السلطان يهدم الجحيم، ولذلك يقول الرسول بطرس: "لم يكن ممكناً أن يمسكه الموت" (راجع أع ٢: ٢٢ – ٢٥ – ٢٦). لقد نقض أوجاع الموت (أع ٢: ٢٤)؛ لأنه كان حراً. وليس تحت دينونة الموت؛ لأنه لم يخطئ. وهو لم يخطئ؛ لأنه عاش حراً في حرية محبته وحرية طاعته للآب.

هل قاوم المسيح الخطية مثلنا؟

نعم، أي المقاومة التي فيها شعلة المحبة للآب.

لا؛ لأنه لم يكن يعاني من الانقسام في الإرادة وفي المحبة مثلنا؛ لأنه في تجاربه في البرية كان الرد سريعاً وحاسماً وبلا تردد. وحتى في البستان كانت الصلاة هي لطلب إرادة الآب، وهذا يؤكد أن له ذات إرادة الآب، وإلاَّ فكيف استطاع أن يطيع هذه الإرادة؟ يقول الرسول في العبرانيين: "إذ هو قد تألم مجرباً يقدر أن يعين المجربين أيضاً"، لكن يظل

---

(1) يوجد أربعة أنواع للطاعة: ١- طاعة العبيد للسيد.

٢- طاعة المتساويين في الكرامة.

٣- الطاعة للقوانين المدنية.

٤- طاعة المحبة، حيث يقبل الأعظم أن يخدم ويقدم ذاته لمن هو أقل، وهو ما أعلنه ربنا يسوع في حياته وموته (عب ١٢: ٢) من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب ... ".

الفرق الواضح هو القلب المنقسم الذي تسوده المشاعر والانفعالات.

في الأدب النسكي الأرثوذكسي: "من تسود إرادته على ميوله وعواطفه ومشاعره، هو من يحمل الصليب بوعي، ولكن من تسود عواطفه وميوله ومشاعره على إرادته هو من ترك الصليب، ويظن أنه يحمله عندما يريد".